الطاقة الحضارية في عقيدة الأمة الإسلامية

الدكتور عبد المجيد عمر النجار

نشر في كتاب

الدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد

(سلسلة مشروعات ثقافية)

مركز البحوث والدراسات

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، الطبعة الأولى

1421 هـ /2000م

أعيد نشره إلكترونيا في رمضان
1439 / مايو 2018

الطاقة الحضارية في عقيدة الأمة الإسلامية

الدكتور عبد المجيد عمر النجار(*)

إن العقيدة لا تفعل في النفوس لاستنهاضها لمجرد كونها عقيدة تحمل في ذاتها طاقة الاستنهاض، وإنما تحتاج في ذلك إلى شرط آخر هو الكيفية التي يكون بها تحملها، بحيث تدفع الإرادة إلى الفعل فيتم النهوض الحضاري.. وهذا يقتضي ترشيد الفهم العقدي والتفعيل الإرادي للعقيدة في النفس.

تمهيد:

لا تنهض الأمم من تخلّفها ولا تتحضّر من بداوتها إلا بعوامل تتأتّى لها تقوم مقام الدافع الذي ينقلها من وضع إلى وضع ومن حال إلى حال. وإذا كانت عوامل النهضة والتحضّر متعدّدة ومتنوّعة، فإنّ أشدّها تأثيرًا وأقواها فعلاً هو عامل الفكرة، التي تشكّل تصوّر الأمم لحقيقة الوجود والكون والإنسان والحياة.. فهذه الفكرة، في طبيعتها الفلسفية عامّة، وفي طبيعتها الدينية خاصّة، هي المحدّد الأكبر لمصير الأمم من التخلّف والتقدّم ومن البداوة والتحضّر، وذلك بحسب ما تكون عليه من تحديدٍ للحقيقة في تلك العناصر الأربعة. ومصداق ذلك يبدو في أنّ كلّ التحوّلات الحضارية الكبرى التي حدثت في تاريخ الإنسان، كانت ناتجة عن تحوّلات كبرى في تصوّر حقيقة الوجود والحياة، سواء كانت حضارات دينية أو غير دينية.

إلاّ أنّ تصوّر حقيقة الوجود والحياة ليس بكاف وحده، فيما ينطوي عليه من

(*) باحث.. أكاديمي.. (تونس).

عناصر الحقّ الفاعلة، لكي يحدث التغيير الحضاري بالفعل، بل قد تبقى عناصر الحقّ فيه مضمرة في ضرب من الكمون حتى تتوفّر لها عوامل أخرى تطلقها من كمونها لتصبح فاعلة في تغيير أحوال من يؤمنون بها، وتتحقّق مقتضياتها الحضارية في الواقع.

ومن أهمّ تلك العوامل الكيفية الإيمانية، التي تحلّ بها تلك الصورة في النفوس فيما إذا كانت مجرّد تصوّر نظري باهت تزاحمه تصوّرات أخرى، أو كانت تصوّرًا يبلغ درجة الإيمان الذي يستبدّ بالنفس ويأخذ بمجامعها، فيقوى على تحريك الإرادة ويدفعها إلى الفعل الذي يصنع التغيير الحضاري. ويذكر في هذا المجال كيف أنّ التصوّر الذي جاءت به المسيحية ظلّ ألف عام غير فاعل للتغيير الحضاري، إلى أن حلّ في نفوس العنصر الجرماني على نحو من التمكّن الإيماني فبدأ يصنع الحضارة الجديدة.

والحضارة الإسلامية لم يكن نشوؤها ناشزًا عن هذه السنّة الاجتماعية، ولم يكن خفوتها بعد ازدهارها ناشزًا عن ذلك أيضا. فقد جاء الإسلام يحدث ثورة في تصوّر حقيقة الوجود والكون والإنسان والحياة، ولما حلّ ذلك التصوّر في النفوس على نحو إيماني أخذ فيه بمجامعها، حرّك إرادة الفعل الجماعي، فنشأت الحضارة الإسلامية بمظاهرها المشهودة. وحينما تغيّرت كيفيّة التحمّل لذلك التصوّر في النفوس، تعطّل عن التحريك الإرادي، فتوقّف الفعل الحضاري، وآلت الأمّة الإسلامية إلى ما آلت إليه من وضع التخلّف.

إلاّ أنّ الأمّة الإسلامية إذا كانت تعيش اليوم على هذا النحو من التخلّف الحضاري، الذي تحاول جاهدة النهضة منه إلى حضارة جديدة فلا يحالفها التوفيق إلاّ قليلا، فإنّها أمّة تتوفّر في حقيقتها على مقدّرات للنهضة كثيرة، وأسباب للاستئناف الحضاري عديدة، بعضها معنوي وبعضها مادّي، ولكنّ مشكلتها أنّها لا تنتبه إلى

بعض تلك المقدّرات والأسباب، ولا تحسن استثمار بعضها الآخر ليكون عامل دفع قويّ يخرجها من حال إلى حال، وتظل في أغلب الأحوال تبحث عن عوامل خارجية للنهوض لا تغني عنها في ذلك شيئًا، فأشبه أمرها: العيس التي يقتلها الظّمأ والماء فوق ظهورها محمول.

ومن بين مقدّرات النهضة الذّاتية الهائلة التي تتوفّر عليها الأمّة الإسلامية، ما تملك من تصوّر لحقيقة الوجود والكون والإنسان، وهو ما يتضمّنه التصوّر العقدي الإسلامي.. فهذا التصوّر هو الذي جاء به الإسلام ثورةً عصفت بما كان سائدًا في الأديان والمذاهب من التصوّرات في هذا الشأن، وأفضى إلى إحداث النهضة الحضارية المشهودة. وإذا كان هذا التصوّر العقدي قد تعطّل عن الفعل الحضاري منذ زمن، فإنّ ذلك ليس لفقدان ما يحمله في ذاته من الحقّ الدافع للتحضّر، فذلك الحقّ قائم فيه على الدوام، وإنّما هو لانحرافٍ في كيفيّة تحمّله قعد به عن الفعل، وما إن تصحّح تلك الكيفيّة حتى تتفجّر طاقته الحضارية.. فما هي تلك الطاقة الحضارية فيه؟ وكيف يمكن أن تفجّر لتحدث نهضة الأمّة بعد كبوتها الطويلة؟

أولاً: الطاقة الحضارية في العقيدة الإسلامية

إنّ الحضارة التي تتطلّع الأمّة الإسلامية إليها، تعني أن تنهض هذه الأمّة لتحقّق من جهة رقيًّا في علاقتها بالطبيعة، باستثمار مقدّراتها بالعلم والتقنية استثمارًا يفضي إلى التعمير في الأرض بما يعود على الإنسان بالنفع الميسّر للحياة والجالب للسعادة، ولتحقّق من جهة أخرى رقيّا في الذات الفردية للإنسان، مادّيا بالصّحّة والقوّة، ومعنويا بالعلم والفضيلة والسموّ الروحي والشعور بالعزّة والكرامة والأمن، وفي الذات الجماعية بالتعاون والتكافل والتراحم والتواصل الروحي في أخوّة جامعة.

وإذا كانت هذه النهضة للاستئناف الحضاري رهينة في حصولها لعوامل متعدّدة، فإنّ على رأس تلك العوامل يأتي التصوّر، الذي يحصل في الأذهان بشأن حقيقة الوجود الذي هو الدائرة الكبرى لكينونة الإنسان، والكون الذي هو مسرح حركته، والإنسان الذي هو موضوع فعله، والحياة التي هي مغزى وجوده. فتصوّر الحقيقة في هذه العناصر، هو الذي يحدّد مدى ما يمكن أن تحقّق الأمّة من شهود حضاري على النحو الذي وصفنا من ترقية الإنسان وتعمير الأرض. وبما أنّ هذا التصوّر محدّد لدى المسلمين في إيمانهم العقدي، فهل هو تصوّر ينطوي على طاقة من شأنها أن تدفع المسلمين إلى النهضة المبتغاة؟ وكيف يظهر ذلك إن كان؟

1- طاقة التعمير المادّي:

تتوفّر العقيدة الإسلامية في جميع فروعها على طاقة كبرى للتعمير المادّي، بحيث لا يمكن المؤمن بها الإيمان الحقّ إلا أن يكون ناهضًا في الأرض بالتعمير، وهو أمر تشهد به تجربة التاريخ، كما تشهد به ذات الحقائق العقدية فيما تتضمّنه من طاقة دافعة للتعمير في الأرض. أمّا تجربة التاريخ، فتتجلّى فيما نهض به المسلمون بدافع عقدي إلى إنشاء عمران مادّي متعدّد الجوانب، ثريّ النتائج، كان أحد وجوه الحضارة الإسلامية الزاهرة. وأمّا طاقة التعمير في ذات الحقائق العقدية، فتتجلّى في جملة من المظاهر لعلّ من أبرزها ما يتمثّل فيما يلي:

أ/ شرفية المادّة:

كانت المذاهب والأديان حين نزل الإسلام تحقّر من شأن المادّة، وتصوّرها في الأذهان على أنّها وجود خسيس في ذاته بالقياس إلى الوجود العقلي الروحي، كما تصوّر الانشغال بها انشغالاً معرفيًا أو استنفاعيًا على أنّه منقصة في حياة الإنسان

بالقياس إلى الانشغال بالتعقّل كما هو في الفلسفة اليونانية، أو بالتروحن كما هو في الثقافة الغنوصية، أو بالترهبن كما هو في المسيحية.

فلمّا جاء الإسلام قلب في تصوّره العقدي هذه المفاهيم، وجعل من الوجود المادّي وجودًا شريفًا في ذاته، وأسبغ عليه من علوّ الشّأن ما لم يكن له في أيّ مذهب سابق، وجعل الانشغال بالمادّة الكونية في سبيل تحصيل الحقيقة منها أو في سبيل الانتفاع بها مسلكًا محمودًا في التصرّف الإنساني، بل هو مندرج ضمن وظيفة الإنسان في الحياة وغايته من الوجود.

وكفى بالوجود المادّي شرفًا، كما جاء في التصوّر العقدي الإسلامي، أن جُعل هذا الوجود دليلاً على الوجود الأعظم، وهو وجود الله سبحانه، كما تتجلّى فيه صفاته على سبيل تجلّي المؤثّر في الأثر، فأيّما مظهر من مظاهر المادّة إلاّ وهو يحمل من وجود الله تعالى وصفاته أثرًا دالاً عليه، وشاهدًا مذكّرًا به، وحبلاً موصلاً إليه. وكفى بهذا الوجود المادّي شرفًا أيضًا، أن جُعل في التصوّر العقدي الإسلامي مسرحًا لعمل الإنسان في حياة زائلة يتحدّد به المصير في حياة دائمة، فهو مقدّمة لتلك الحياة، ومزرعة لها يتحدّد الحصاد فيها بما يُزرع في عالم المادّة من الزرع.

وإذا كانت العقيدة الإسلامية تحدّد لعالم المادّة هذه الدرجة من الشرف، وتبرّئه ممّا علق به في العقائد السابقة من الحقارة والخسّة، فلا غرو أنّ المؤمن بذلك سيدفع به إيمانه إلى ضرب من السلوك المادّي يتعامل فيه مع مادّة الكون تعاملاً يقبل فيه عليها إقبالاً على ما هو برفعته وعلوّ قيمته يثري الحياة ويعمّرها، آنيًا بالاستنفاع المادّي، وأخرويًا بحصاد ثمرات ذلك التعمير. وأين من هذا مسلك أولئك الذين هجروا عالم المادّة فلم يعمّروا فيه شيئًا، إذ هو في معتقدهم عالم خسيس لا يغني في إثراء الحياة فتيلاً؟ وأين منه أيضًا مسلك أولئك الذين حصروا الوجود في عالم المادّة ونفوا ما

سواه، فغرقوا فيه لما توهّموا أنّ هذا العالم هو غاية الحياة، فأرهقوه بمطالبهم المجحفة التي أفضت به إلى ما ينذر بدمار وشيك، كما يتبدّى في الأزمة البيئيّة الراهنة.

ب/ الاستعلام المادّي:

لا يتمّ في العالم المادّي تعمير إلاّ إذا علمت القوانين التي تحكم ذلك العالم، في تركيبه وسيرورته، فالعلم بذلك هو المفتاح لكلّ نهضة تعميرية مادّية، وليس لمن لا يملك ذلك العلم مطمع في تلك النهضة. وقد جاءت العقيدة الإسلامية توجّه المؤمنين إلى عالم المادّة لاستعلام قوانينه، وجعلت ذلك -في نطاق طلب العلم عامّة- أحد الفروض الواجبة على المسلم. وفي القرآن الكريم، من الحثّ على التدبّر في آفاق الكون والتفكّر في آيات الله فيه، ما يبلغ من الاستفاضة مبلغًا يفيد التأصيل لمقصد أصليّ من مقاصد المعتقدات الإسلامية.

وإذا كان التوجيه العقدي الإسلامي لاستعلام حقائق المادّة وقوانينها، يهدف من بين ما يهدف إلى حصول العلم بما وراء تلك الحقائق والقوانين من حقائق الغيب باعتبارها شاهدًا عليها وموصلاً إليها، فإنّ ذلك من شأنه أن يجعل الدافع لاستعلام حقائق المادّة دافعًا مضاعفًا، إذ يصبح مكتسبًا لصبغة دينية عقدية مباشرة، يكون بها التقدّم في اكتشاف قوانين الطبيعة المادّية هو في ذات الوقت تقدّمًا في معرفة الله تعالى والإيمان به، وذلك ما يوحّد حركة العلم كلّها في اتّجاه واحد، فتتضاعف قوّتها وتثرى حصيلتها، على نحو ما حصل في الحضارة الإسلامية حينما تقدّم تقدّمًا كبيرًا المنهج العلمي التجريبي، وأثمر علومًا كونية غزيرة باعتبار أنّ ذلك كلّه هو -كما بيّنه الإمام ابن تيميّة رحمه الله- من باب العلم الشرعي الذي أمر الله تعالى به، والذي يقرّب منه، ويزيد من ترقية الإيمان به.

وإذا كان الأمر في العلم بحقائق الكون المادّية على هذا النحو، كما وجّهت إليه العقيدة الإسلامية، فكيف لا يندفع المؤمن بهذه العقيدة في طلب العلم المادّي باكتشاف قوانين الطبيعة، والحال أنّ ذلك الطلب هو بالإضافة إلى ما يحقّق من نفع مادّي، يقرّب من الله تعالى بتقوية الإيمان به من خلال الوقوف على شواهد وجوده وصفاته المتجلّية في كلّ قانون من قوانين الكون وكلّ حقيقة من حقائق المادّة، إذ هي ليست كلّها إلا آيات ذلك الوجود وتلك الصفات؟ إنّ ذلك ما حصل بالفعل في الحضارة الإسلامية، التي نهضت فيها الأمّة باستعلام الكون كما لم تنهض بذلك أمّة سابقة، وما كان الدافع إليه إلا دافعًا عقديًا فجّر في النفوس طاقات العلم فنهضت تستعلم مادّة الكون.

ج/ الاستنفاع الكوني:

إنّ العلم بالقوانين الكونية المادّية، وإن كان في ذاته يعدّ فضيلة مقدّرة باعتباره موصّلاً إلى العلم بالله تعالى، فإنّه يعدّ كذلك أيضًا لأنّه يتوقّف عليه السعي الإنساني لاستنفاع المادّة الكونية واستثمارها في تحقيق الحياة وتنميتها. وقد جاء هذا الاستنفاع مقصدًا أساسيًا في العقيدة الإسلامية، إذ جُعل فيها معبَّرًا عنه بالتعمير في الأرض، أحد العناصر الأساسية في الوظيفة التي كلّف الإنسان بأدائها في الحياة، فجاء السعي في الأرض لاستثمار مقدّراتها بناء على ذلك أحد التكليفات الشرعية التي كلّف بها الإنسان ضمن الأمانة التي حُمّلها فحملها مختارًا.

والمقصود بالاستثمار المادّي للمقدّرات الطبيعية، ارتفاق تلك المقدّرات في كمّياتها وكيفياتها لتحقيق المنفعة المادّية للإنسان، المفضية لترقية حياته ورفاهيتها، مأكلاً وملبسًا ومسكنًا ومركبًا وزينة، بما يعود عليه في ذلك كلّه بالسعادة والبهجة، وفق ضوابط في ذلك كلّه تحول دون أن يصبح الرفه المادّي هو الغاية العليا من الحياة،

تنتقص من قيمة الإنسان بما يجعله مساويًا للأنعام، كما تحول أيضا دون أن يصبح جائرًا على مادّة الطبيعة بالتحطيم والتخريب والتبديد.

إنّ الاستثمار المادّي للطبيعة بهذا المعنى، جاء في العقيدة الإسلامية جزءًا من وظيفة الوجود الإنساني، فما وُجد الإنسان إلاّ ليكون خليفة في الأرض. وهذه الخلافة لا تتمّ إلا بعمارة الأرض والابتغاء من فضل الله فيها وفق منهج غايته العليا الفوز برضوان الله تعالى في حياة أخرى يكون فيها نعيم دائم.. فهذه العمارة المادّية هي جزء من غاية الحياة التي تبلغ منتهاها بالنعيم الخالد، وتكون هذه مقدّمة لتلك ومزرعة لها، وذلك ما يستفاد من مثل قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ (الملك:15). فهذا الأمر بالسعي في الأرض للانتفاع المادّي هو في حقيقته تكليف بعمارة الأرض عمارة ذات غايتين: قريبة هي تحقيق المنفعة المادّية، وبعيدة هي تحقيق النعيم الخالد عند النشور إلى الله، وهو ما يتبيّن به البعد العقدي في الاستنفاع المادّي للطبيعة الكونية.

وإذا كان هذا الاستنفاع المادّي لمقدّرات الكون في العقيدة الإسلامية على هذا النحو الذي غدا فيه تكليفًا تعبّديًا يقرّب من الله تعالى، فلا جرم أن يكون الإيمان بتلك العقيدة ينطوي على طاقة إرادية دافعة إلى إنجازه على أرض الواقع، وهو ما كان له مصداق بيّن في التاريخ، إذ ما إن اعتنق المسلمون تلك العقيدة حتى انطلقوا في الأرض يسعون فيها بالتعمير المادّي فأنجزوا من عظيم العمران ما هو معلوم. ولم تكن أغلب الأمم على ذلك العهد إلاّ على ثقافات ومعتقدات قعدت بها عن ذلك، من عقلانية يونانية تحقّر من شأن المادّة، وكهنوتية مسيحية تزهّد في الانتفاع بها، وغنوصية شرقية تدعو إلى التخلّص منها.

إنّ في العقيدة الإسلامية طاقة تعميرية مادّية كبرى، تجمع بين الإعلاء من شأن

المادّة والرفع من قدرها، وبين استعلام قوانينها وحقائقها، وبين استنفاعها واستثمار مقدّراتها، فتكون بهذا الجمع قد استكملت في النفوس دوافع النهضة بالأمّة المؤمنة بها نهضة التعمير، فمثّل ذلك مخزونا مستديمًا للدفع الحضاري، إن لم يكن في حالة فعل كما حصل في حقبة الازدهار من تاريخها فإنّه يكون في حال كمون لا يفقد فيه دافعيته، فما إن يستثار حتى يعاود الفعل، وهو الوضع الذي تبحث فيه الأمّة على أسباب للنهضة تخرج بها من تخلّفها، وتدفع بها إلى التحضّر، فذلك المخزون العقدي هو أقوى أسباب نهضتها الكامنة.

2- طاقة الترقية الإنسانية:

تحمل العقيدة الإسلامية من معاني الإعلاء من شأن الإنسان وأسباب الترقّي به في سلّم الكمال ما يجعل من هذا الترقّي مقصدًا أصليًا من مقاصدها مكمّلاً للمقصد الأوّل المتمثّل في استعمار الأرض.. فالترقّي بالإنسان في ذاته واستعماره المادّي في الأرض، يكتملان ليكوّنا معًا الغاية التي من أجلها خلق الإنسان، وهي غاية الخلافة في الأرض، خلافة تقوم على أساسين: العمارة المادّية في الأرض، والترقية الذاتية للإنسان وفق منهج العبودية لله تعالى كما جاء في قوله تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾(البقرة:30)، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾(الذاريات:56). ولما كانت العقيدة الإسلامية تنطوي على مثل هذه المعاني في ترقية الإنسان، فإنّها تكون لا محالة مشتملة على طاقة كبرى من شأنها الدفع بالإرادة إلى النهضة الحضارية في شقّها الإنساني كما كانت لها طاقة في الدفع إلى النهضة الحضارية في شقّها المادّي، وذلك على نحو نورد تاليًا من التفصيل:

أ/ ترقية الذات الفردية:

من أصول العقيدة الإسلامية تكريم الذات الإنسانية.. فالإنسان بمقتضى إنسانيته، مجرّدًا عن أيّ عارض من عوارض الجنس واللّون والعرق والدين وغيرها، هو كائن كريم الذّات رفيع الشأن، وذلك ما أصّله قوله تعالى بوضوح وقطعية: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (الإسراء:70).

ومن تكريم الإنسان في عقيدة الإسلام أن خُلق في كيانه المادّي والمعنوي في أحسن تقويم، وخلقت من أجل مصلحته الأكوان كلّها وجعلت مسخّرة له، يقول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾(لقمان:20)، بل إنّ الإنسان لم يخلق أصلاً إلا من أجل نفعه، نفعًا بنعيم موقوت في الحياة الأولى، وبنعيم دائم في الحياة الأخرى، انتفاء في ذلك لأيّ معنى من معاني العبثية والصدفة والخطيئة والنقمة، كما هو شأن الاعتقاد في كثير من المذاهب والأديان.

وبناء على هذه القيمة الرفيعة، التي قدّر عليها الإنسان، فإنّ العقيدة الإسلامية جاءت تجعل أساس تكليفه أن يرقّي ذاته الإنسانية بالسموّ الروحي إلى الأفق العليا في حبل موصول بالله تعالى يقترب به إليه، إخلاصاً في العبودية لله، وتخليصًا للنفس من الشرور والآثام، وتطهيرًا للروح من الأدران، وصقلاً للعقل بالعلوم. وهذه الترقية للذات هي التي ستكون من العناصر الأساسية في تحديد المصير الأخروي، فيكون ثوابًا أو عقابًا بقدر ما ينجز الإنسان منها أو يقصّر فيها، قال عز وجل: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ مَن تَزَكَّىٰ ﴾طه:76)، كما أنّها هي التي ستكون أساس التفاضل بين بني الإنسان في الحياتين كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ

أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (الحجرات:13).

وباعتبار ذلك، فلا جرم والعقيدة الإسلامية على هذه الحال من تكريم الإنسان والتكليف بترقية ذاته، أن تحدث في نفوس المؤمنين بها الدافع الإرادي لتزكية النفس، وأن تفجّر فيهم أشواق الكمال، فيسعوا إلى إشباعها بالسعي في اكتسابه، وتلك نتيجة منطقية صدّقها الواقع التاريخي، إذ ما إن اعتنق المسلمون هذه العقيدة حتى انطلقوا في مجاهدة النفوس لتزكيتها بالعلم والفضيلة وإخلاص الوجه لله تعالى، حتى نشأت من ذلك نماذج من أفراد الناس بلغوا في درجات الكمال مبلغًا مشهودًا، وهم وإن لم يكونوا كلّ الناس فإنّهم كانوا كثيرًا من الناس، وإن لم يكونوا على سواء بين الأجيال فإنّهم كانوا كثيرًا في كلّ الأجيال على عهود الازدهار، وقد كان ذلك ملمحًا أساسيًا من ملامح التحضّر الإسلامي الزاهر.

ب/ ترقية الذات الجماعية:

كما تتضمّن العقيدة الإسلامية طاقة كبيرة لترقية الذات الفردية للإنسان، فإنّها تتضمّن أيضًا نفس الطّاقة لترقية الذات الجماعية.. فهذه العقيدة لا تجعل هدفها الخلاص الفردي، الذي ينجو فيه كلّ فرد في خصوص ذاته باستجابته للتكاليف المطلوبة، وإنّما تجعل هدفها الهيئة الجماعية للإنسان أن تنهض بوظيفة مشتركة خلق من أجلها الإنسان النوع; ولذلك فقد كانت التكاليف الدينية تكاليف جماعية في أغلبها، سواء في طبيعتها أو في طريقة تحمّلها وإنجازها.

ويرتكز هذا البعد الجماعي في المضمون العقدي الإسلامي على ذات ما يرتكز عليه البعد الفردي الذي شرحناه آنفا، وهو تكريم الكائن الإنساني والإعلاء من شأنه

وجعله معقد الحركة الجماعية في ذلك المضمون، بحيث يكون كلّ منشط جماعي لبني الإنسان في سبيل القيام بمهمّة الخلافة في الأرض موجّهًا بما يحفظ للذّات الإنسانية من الكرامة، وما يحقّق لها من العلوّ والرفعة.

وعلى هذا الأساس، جاءت العقيدة الإسلامية تتضمّن مجموعة من القيم الإنسانية ذات الطابع الجماعي، وتجعلها هدفًا تترقّى إليها الحركة الجماعية، فيحقّق الإنسان من الرقيّ الجماعي بقدر ما يحقّق منها، ويتقدّم بالتالي في القيام بوظيفته المكلّف بالقيام بها بقدر ما يتقدّم في الالتزام بتلك القيم، والحفاظ عليها، وإنجاز مقتضياتها الواقعية، في خضمّ الحركة الاجتماعية العامّة.

ومن أبلغ الدلالات في هذا الشأن، ما جاء في فاتحة الدعوة الإسلامية من اقتران بين الدعوة إلى أصول العقيدة وعلى رأسها التوحيد، وبين الدعوة إلى هذه القيم الاجتماعية، كما بدا ذلك في السور المكّية الأولى التي تتضمّن التكليف بالتكافل الاجتماعي، إطعامًا للمساكين ورحمة باليتامى والضعفاء من الناس، كما تتضمّن التوجيه إلى كفالة الحرّية الدينية والفكرية، تلازمًا في ذلك مع الدعوة إلى توحيد الله تعالى والإيمان بيوم الحساب.. ففي ذلك الاقتران ما يدلّ على البعد الاجتماعي المكين في أصول العقيدة الإسلامية.

وبالإضافة إلى قيمة التكافل الاجتماعي المادّي والمعنوي، الذي يُحفظ فيه الضعفاء، وقيمة الحرّية في الرقاب والمعتقدات والأفكار، تتضمّن العقيدة الإسلامية قيمًا اجتماعية أخرى كثيرة، لعلّ من أهمّها قيمة التعاون بين بني الإنسان من أجل تنمية الحياة على الرغم من تنوّع الشعوب والقبائل، قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾(الحجرات:13). ومنها قيمة العدل والمساواة بين أفراد المجتمع، وإلغاء كلّ عوامل التفاضل بينهم سوى عامل واحد

هو عامل الجهاد لتزكية النفس المعبّر عنها بالتقوى في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾(الحجرات:13).. ومنها قيمة الشورى، التي يتحلّى بها الناس على نحو موسّع في إدارة كلّ شؤون الحياة الجماعية، منعًا للقهر والاستبداد من قِبل بعضهم على الآخرين، وذلك ما جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾الشورى:38).. ومنها قيمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التي تحفظ مسيرة المجتمع المتقدّمة في الخير من أن تنحرف بها السبل.

إنّ هذه القيم الاجتماعية، لـمَّا كانت تمثّل أحد الأبعاد الأساسية للعقيدة الإسلامية، فإنّها لما تشرّبها المسلمون ضمن ما آمنوا به من تلك العقيدة، فإنّهم بالدافع العقدي نهضوا يحقّقون منها في واقع الحياة الاجتماعية أقدارًا كبيرة، لئن كانت تتفاوت بين قيمة وأخرى وبين فترة زمنية وثانية إلاّ أنّها في الجملة كانت تمثّل خطّ تقدّم ظلّت تترقّى به الذات الاجتماعية للأمّة طيلة عهد الازدهار الحضاري، وشواهد ذلك أكثر من أن تحصر، إلاّ أنّنا يمكن أن نذكر رمزًا شاهدًا عليها وملخّصًا لما حقّقت الأمّة في وقت مبكّر من الترقّي في تكريم الإنسان والعدل والمساواة بين أفراده، ويتمثّل ذلك الرمز في أنّه في عهد الأمويين كان يولّى الإمارة الدينية الروحية للحجّ، وهو أكبر تجمّع إسلامي على الإطلاق، عطاء بن أبي رباح، وكان هذا الرجل أسود اللون، أفطس الأنف، أعور، أعرج، مفلفل الشعر، ثمّ أعمى في أواخر عمره.. لقد سقطت من الاعتبار كلّ العوارض، وبقيت قيمة الإنسان متجلّية فيما حقّق من تزكية النفس بالعلم والتقوى أساسًا وحيدًا للتقدير.. ولنا أن ندرك من هذا الرمز، المسافة التي قطعتها الأمّة في الترقّي الاجتماعي إذا علمنا أنّ مثل هذا الرجل لم يكن قبل بضعة عقود من السنوات يحظى إلاّ بما يحظى به العبيد وذوو العاهات القعدة من الحقارة والدونية

والإهمال.

يتبيّن ممّا تقدّم أنّ العقيدة الإسلامية في تصوّر الوجود والكون والحياة تنطوي من المعاني على ما يشكّل طاقة هائلة في الدّفع إلى النهوض الحضاري، سواء فيما يتعلّق بالتعمير المادّي في الأرض، أو في ترقية الذات الفردية والجماعية للإنسان. وقد تبيّنت تلك الطاقة على النهضة بالامتحان المنطقي المسفر عن علاقة اللزوم بين ذات التصوّرات العقدية وبين آثارها في النهضة الفعلية، وبالامتحان التاريخي المتمثّل في التجربة الحضارية الإسلامية التي أثمرتها العقيدة الإسلامية.. ولكن ما هي الكيفية التي يمكن أن تتفجّر بها تلك الطاقة العقدية، لتثمر نهضة بالفعل، بعدما تكون أسباب تلك النهضة كامنة بالقوّة، تترقّب العوامل التي تخرجها إلى الواقع؟

ثانياً: التفعيل الحضاري للعقيدة الإسلامية

إنّ أصول العقيدة الإسلامية ظلّت محفوظة في إيمان الأمّة على مرّ الزمن، بما فيها البعد الحضاري تعميرًا في الأرض وترقية للإنسان.. ولكن لماذا لا تعمل هذه العقيدة على دفع المسلمين إلى النهضة الحضارية بعد طول تخلّف وتكرار المحاولات للنهوض من ذلك التخلّف كما كان الأمر في النهضة الحضارية الأولى، التي أحدثتها العقيدة الإسلامية عند نزولها؟

الجواب على ذلك أنّ هذه العقيدة لا تفعل في النفوس لاستنهاضها لمجرّد كونها عقيدة تحمل في ذاتها طاقة الاستنهاض الحضاري كمسلّمة منطقية في تأدية المقدّمات إلى نتائجها، وإنّما تحتاج في ذلك الاستنهاض إلى شرط آخر هو الكيفية التي يكون بها تحمّلها كعقيدة إيمانية.. فلكي تتفجّر الطاقة الحضارية لتلك العقيدة في النفوس فتدفع إلى آثارها في الواقع، يلزم أن يكون الإيمان بها، تصوّرًا وتصديقًا، على كيفية من الصفاء في التصوّر ومن العمق في التصديق بحيث تدفع الإرادة إلى الفعل فيتمّ النهوض

الحضاري، وذلك ما كان حاصلاً في إيمان الأجيال التي صنعت الحضارة الإسلامية المزدهرة.

ولما بدأت كيفيّة الاعتقاد يداخلها الخلل في التصوّر والتصديق بعد قرون من الحضارة، بدأ الفعل الحضاري الإسلامي يفتر شيئًا فشيئًا، لتراجع العقيدة عن موقع الدفع في النفوس، حتى آل الأمر إلى ما آل إليه من التخلّف.. ثمّ لم تستطع تلك العقيدة أن تعاود الدفع لبقائها على الكيفية الطارئة التي أقعدتها عن الفعل، فتواصلت حال التخلّف بالرغم من الجهود المبذولة للنهضة.

وقد انتهى الأمر إلى هذا الوضع الذي عليه الأمّة الإسلامية اليوم متمثّلاً في طاقات وقدرات للنهضة ضخمة الأحجام متعدّدة الأنواع، ولكنّها في أغلبها معطّلة عن الفعل، قاصرة عن الدفع لإحداث النهضة. وعلى رأس هذه الطاقات والقدرات تأتي الطاقة العقدية، فهي طاقة نهضة فاعلة تتوفّر عليها الأمّة، ولكنّها لم تُستنهض بعد لتستعيد كيفيتها الإيمانية التي تصبح بها عامل نهوض حضاري فعلي يدفع بالمسلمين في حركة تتقدّم بهم في مساري التعمير المادّي والترقّي الإنساني على حدّ السواء. ونحسب أنّ تلك الكيفية الإيمانية الدافعة لا تتمّ إلاّ بتوفّر عنصرين أساسين يغيّران من الوضع الإيماني الذي عليه عقيدة المسلمين اليوم إلى وضع تصبح فيه هذه العقيدة فاعلة في النفوس بحيث تدفع إلى النهوض الحضاري، وهما: ترشيد الفهم العقدي، والتفعيل الإرادي للعقيدة في النفوس.

1- ترشيد الفهم العقدي:

كان المسلمون في العهد الإسلامي الأوّل يتلقّون مفاهيم العقيدة مباشرة من معين الوحي، قرآنًا وسنّة، وكان إيمانهم بها يشمل الإيمان بكلّ ما أمر الله به ونهى عنه، بحيث يتنزّل كلّ ذلك في التصديق به والإذعان له على سواء، ما غلبت عليه الصبغة النظرية

التصوريّة كالإيمان بوجود الله ووحدانيته والإيمان بالبعث والحساب، وما غلبت عليه الصبغة العملية كإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والسعي في العلم والكدح في الأرض بالتعمير وإماطة الأذى عن الطريق. وإن يكن بين ذلك ترتيب، ولكنّه ترتيب في نطاق دائرة جامعة هي دائرة العقيدة الإيمانية، تشرّبًا في ذلك كلّه بما شرح النبيّ ﷺ من مفهوم لتلك العقيدة وذلك في قوله: «**الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، أَعْلاهَا لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ**»[1].

وبعد فترة من الزمن بدأ يطرأ على هذا الفهم للعقيدة بعض التغيّر; ذلك أنّ العقيدة أصبحت مناطًا لعلم قائم يتصدّى لما تعرّضت له القضايا الأساسية فيها من التحدّي الخارجي والداخلي، وهي بالأساس قضايا الألوهية والنبوّة والبعث. وبما أنّ هذه القضايا ذات الصبغة النظرية الغالبة كانت هي المحاور التي يدور عليها علم العقيدة ضرورة أنّها هي التي كانت محلّ التحدّي، فإنّ سائر القضايا العقدية الأخرى، وخصوصًا تلك التي كانت تغلب عليها الصبغة العملية، لم تجد لها مكانًا في هذا العلم لكونها لم تكن هدفًا بيّنًا للتحدّي.

وبمرور الزمن وأيلولة الفكر الإسلامي عمومًا إلى الفتور، بدأ يستقرّ في الأذهان شيئًا فشيئًا أنّ مفهوم العقيدة كأنّما هو مقتصر على تلك القضايا التي تضمّنها علم العقيدة وتمحّض للبحث فيها والذّبّ عنها. وساعد على ترسيخ هذا المفهوم النسق المدرسي التعليمي، الذي انتهى إليه علم العقيدة، والذي جمد عليه دون مزيد نموّ وتوسّع كسائر العلوم الإسلامية الأخرى لما آل التحضّر الإسلامي عمومًا إلى الانحدار. وانتهى الأمر إلى أن انسحب أو كاد من الوعي العقدي للمسلمين تلك القضايا العقدية ذات الصبغة العملية من مثل السعي في الأرض بالتعمير اكتشافًا للقوانين الطبيعية واستثمارًا

(1) أخرجه مسلم.

للمقدّرات المادّية، ومن مثل المجاهدة للترقّي الإنساني الفردي بالعلم والفضيلة، والجماعي بالتكريم والحرية والتكافل والتعاون والتراحم، وهو الأمر الذي أفضى إلى أن أصبح الإيمان العقدي يكاد يقتصر على الغيبيات دون المشهودات، ففقدت العقيدة بذلك طاقتها في النفوس على أن تحرّك الإرادة إلى العمل الإنجازي، فتراجع الفعل الحضاري الإسلامي، واستقرّ الأمر على ذلك النحو إلى العهد الحاضر.

وفي سبيل إعادة الاعتقاد إلى نصابه، الذي يكون به فاعلاً فيحدث في النفوس الدفع إلى النهضة، يستلزم الأمر ترشيد الفهم العقدي في مستويات عدّة أهمّها ما يلي:

أ– ترشيد الصدور:

مصدر العقيدة الدافق الحيّ هو الوحي، قرآنًا وسنّة، فهما الملهم المباشر للاعتقاد في صورته الشمولية الصافية الفاعلة، وحينما أصبحت العقيدة علمًا مدرسيًا توارثه المسلمون جيلاً عن جيل إلى عهود الجمود، أصبح الخالفون في هذه العهود يقصدون في سبيل أخذ عقيدتهم وتصحيحها أقوال العلماء السابقين وشروحهم وتقريراتهم، وهي التي داخلتها دواخل الجدل، بل داخلتها مقتبسات من ثقافات أخرى في خضمّ المعركة الدفاعية التي كان يخوضها علم العقيدة، وأصبح كلّ ذلك كأنّما هو فاصل في تشرّب المفاهيم العقدية بين المسلمين وبين المصدر الأصلي من قرآن وسنّة.

ومن المعلوم أنّ آراء العلماء وشروحهم وتقريراتهم، مهما يكن من سدادها واندراجها في نطاق مقتضيات تعاليم الوحي، فإنّه لا يمكن بحال من الأحوال الاستغناء بها عن معين الوحي، وعن الرجوع المباشر له; ولذلك فإنّه في قضيّة الحال لا مناص من أن تعاود الأمّة في سبيل ترشيد اعتقادها الارتباط المباشر بالقرآن والحديث، ليكونا المعين الأصلي للاعتقاد، وتكون آراء العلماء وشروحهم مُعينًا ومُستأنَسًا، على خلاف

ما هو حاصل في هذا الشأن منذ زمن.

وحينما يصبح الوحي هو المصدر المباشر للاعتقاد، فإنّ حقائق العقيدة تقع في النفوس على صورتها الصافية الشاملة كما كانت تقع في نفوس الجيل الذي تلقّى الوحي عند نزوله، دون أن تخالطها وساطة من الشروح الإنسانية التي تخضع للاعتبارات الظرفية في إبراز بعض دون بعض، وتقديم معتقدات وتأخير أخرى، ممّا يؤدّي إلى تشوّش الصورة العقدية الإسلامية في تكاملها وشمولها. هذا وإنّ المسلمين على اختلاف درجاتهم في المعرفة، لهم القدرة على الاتّصال المباشر بالقرآن والحديث واستفادة العقيدة منهما، وإن يكن ذلك على اختلاف بينهم في درجة الاستيعاب وحسن التحمّل الإيماني.. وحينما يصبح الوحي هو المرجع المباشر للجميع، ويغدو ذلك سنّة ماضية، فإنّ الكفاءة على الاستفادة ترتقي شيئًا فشيئًا، وترتقي معها كيفيّة التحمّل الإيماني للعقيدة في أبعادها التصورية والعملية.

وحينما يرشد الفهم العقدي بصدوره عن مورده الأصلي، وذلك بالارتباط المباشر بالقرآن والحديث على النحو الذي وصفنا، فإنّ كيفيّة جديدة للإيمان العقدي تحصل في الأذهان; ذلك لأنّ الاتّصال المباشر بالوحي يجعل للمعتقدات من الوقع في النفوس ما لا يكون لها لو أخذت بواسطة شروح إنسانية، إذ الوحي يلقي بمعانيه بقوّة في نفوس قاصديه من المؤمنين، فتقع تلك المعاني موقعًا مكينًا من شأنه أن يحرّك الإرادة الفاعلة فتنهض لإنجاز المقتضيات العملية التي تقتضيها العقيدة بمفهومها الشمولي، وذلك هو ما كان يتمّ على العهد الإسلامي الأوّل الذي شهد النهضة الحضارية، وهو المغزى الذي أراده والد فيلسوف الإسلام مُحَمَّد إقبال، فيما رواه عنه من نصيحته الواعية العميقة المعبّرة عن الروح الثقافية الإسلامية، بأن يقرأ القرآن الكريم لكي يستوعب معانيه وينفعل بها، معتبرًا إيّاه كما لو كان ينزل عليه من الله تعالى لأوّل مرّة.

ب- ترشيد المدلول:

لقد أصبح مفهوم العقيدة كما بينا سابقًا يشبه أن يكون في أذهان المسلمين متمحّضًا للإيمان بما هو غيبي ذو طبيعة تصوّرية نظرية من مثل الإيمان بالله واليوم الآخر، مستبعدًا منه أو يكاد كلّ ما هو ذو طبيعة عملية من أوامر الله ونواهيه، إذ أن هذه أصبحت تندرج تحت مسمّى الشريعة وأخرجت من مسمّى العقيدة، وبذلك انفصل في الأذهان ما هو غيبي نظري عمّا هو مشهود عملي، ليقدّم الأوّل في ميزان القيمة الإيمانية وفي ميزان الاهتمام ويؤخّر الثاني، وهو ما انعكس بجلاء فيما انتهى إليه الفكر العقدي لدى الأكثر من المسلمين من مفهوم للإيمان يقوم على اعتبار حقيقة الإيمان تنحصر في التصديق القلبي دون العمل بالجوارح.

إنّ هذا المدلول للعقيدة أدّى، فيما أدّى، إلى ارتخاء الإرادة في الإنجاز العملي لأوامر الدين ذات الصبغة العملية، ما دام ذلك لا يقدح في اعتقاد المسلم قدحًا يفضي إلى نقضه. وفي سبيل ترشيد هذا المفهوم، ينبغي أن يُرسّخ في أذهان المسلمين أنّ العقيدة يمتدّ مفهومها ليشمل الإيمان بكلّ ما أمر الله به ونهى عنه من أعلى تلك الأوامر وهو الإيمان بالله تعالى إلى أدناها وهو إماطة الأذى عن الطريق كما جاء في الحديث النبوي الآنف الذكر، فتحلّ إذن كلّ تلك الأوامر والنواهي في الأذهان على أنّها من مفردات العقيدة الإسلامية، التي يكلّف الإنسان بتحمّلها تصوّرًا وتصديقًا.

ويقتضي هذا المفهوم فيما يقتضي، أن يندرج في أذهان المسلمين مجدّدًا ضمن مفهوم العقيدة، تلك الأوامر والنواهي ذات الصبغة العملية التطبيقية لتنتظم في ذلك المفهوم جنبًا إلى جنب مع تلك التي هي ذات صبغة غيبية نظرية، وإن يكن ذلك على

نحو من التراتب بينها، فإذا وحدانية الله تعالى والبعث والحساب، يجاورها على صعيد الاعتقاد التكافل الاجتماعي من رفق باليتيم وإطعام للمسكين، والتعمير في الأرض من سعي فيها للعلم بقوانينها، ومشي في مناكبها للابتغاء من فضل الله فيها، ومن تكريم للإنسان بتحقيق حريته وحفظ حقوقه، وذلك على نحو ما نجد من بيان في القرآن الكريم تقترن فيه على نفس الصعيد الإيماني هذه التكاليف كلّها، كما ورد ذلك في السور المكّية المؤسّسة للعقيدة الإسلامية.

كما يقتضي هذا المفهوم فيما يقتضي، أن يصبح راسخًا في الوعي الإيماني للمسلم أنّ كلّ ما يعمل فيه عقله بفكر وكلّ ما تأتيه جوارحه من عمل إنّما هو مؤطّر بإطار عقدي شامل، حتى إذا ما أتى يجتهد في وضع خطّة للتنمية الاقتصادية على سبيل المثال، أو أتى ينفّذ إقامة عمران مدني، كان ذلك كلّه متنزّلا في وعيه ضمن إطار عقدي، على معنى أنّه يكون شاعرًا شعورًا عميقًا بأنّه يفعل ذلك كلّه إيمانًا بما أمر الله تعالى به ونهى عنه، على نحو ما يشعر به حينما يؤدّي صلاته أو صومه، وحينما يذكر ربّه ويتوجّه إليه بالدعاء من أنّه إنّما يفعل ذلك إيمانًا بأوامر الله ونواهيه.

وقديمًا كان الإمام الغزالي رحمه الله، على وعي عميق بهذا الشأن حينما لاحظ في الأمّة مبادئ انحراف في مفهومها العقدي، وذلك لما بدأت تفصل بين ما هو عقدي إيماني وما هو شرعي فقهي، ولما أصبح الكثيرون يؤدّون الواجبات الدينية العملية في غير ربط لها ربطًا قويًّا بمغازيها العقدية، فقام قومته الإصلاحية لتعديل هذا الميل بالدعوة إلى الوصل بين ما انفصل، فألّف في ذلك كتابه الذائع الصيت: (إحياء علوم الدين)، مناديًا فيه بأن تندرج في وعي المسلمين مجدّدًا كلّ التكاليف الدينية في إطار الاعتقاد، لتصبح صادرة عن المسلم فكرًا وعملاً باعتبارها إيمانًا وليس باعتبارها مجرّد أفكار وأعمال، وهو ما بدا فيما صدّر به كتابه ذا الصبغة الفقهية العملية

بمبحث عقدي، وفيما صدّر به كلّ فصل من فصوله الفقهية العملية بتوجيه إيماني عقدي، فقد كان رحمه الله يعالج في الأمّة وضعًا بدأ فيه تصوّرها العقدي ينفصل فيه الإيمان عن العمل، ممّا أدّى إلى تراجعها الحضاري. وذلك العلاج الذي طلبه الغزالي للأمّة في سبيل إنقاذها من التراجع الحضاري، ما زال هو العلاج المطلوب لها اليوم في سبيل نهضتها الحضارية.

وليس بخفيّ أنّ المسلم لما تتكيّف عقيدته في النفس على هذا النحو من شمول الاعتقاد لكلّ أوامر الله ونواهيه، ومن الوصل بين الإيمان والعمل، وبين الغيب والشهادة، وبين التصوّر والسلوك، على سواء في اندراجها ضمن العقيدة، فإنّ ذلك من شأنه أن يكون له دافعًا قوّيًا نحو الإنجاز العملي لمقتضيات التكليف في تعمير الأرض وترقية الإنسان على نحو ما حدّدنا لهما من المعاني سابقًا، إذ ذلك كلّه يصبح حالاً في النفس محلّ التكليف العقدي الذي يؤدّي الإخلال به إلى إخلال بالعقيدة، مع ما يعنيه ذلك من إخلال بذات التديّن قد ينتهي بصاحبه إلى الكفر من حيث طلب الإيمان، وإلى الهلاك من حيث طلب النجاة.

فترشيد المفهوم العقدي على النحو الذي وصفنا، إذا ما أصبح وضعًا عامًّا تندرج فيه الأمّة كافّة أو الأغلب من أفرادها كما كان الأمر في عهودها الأولى، فإنّ حيوية سوف تسري فيها، ودمًا جديدًا سوف يحرّك إرادتها لتنهض مقبلة على تعمير الأرض وترقية الفرد والمجتمع، فيكون ذلك بداية لاستئناف حضاري يتطوّر بالتراكم إلى أن يؤتي أكله المنشود.

ويجدر أن نذكر في هذا الصدد أنّ اليابان لما كان العمل المتقن يحلّ في عقيدة أهلها أعلى الدرجات منها، فإنّها استطاعت بذلك أن تنهض نهضتها الحضارية المشهودة، وأن تستأنف تلك النهضة بعد كلّ نكسة تصيبها.. كما نذكر أيضا أنّ

اليهود لما كانت العودة إلى أرض الميعاد وتعميرها بدولة صهيون تحلّ في عقيدتهم المحلّ الأرفع، وصلوا في النهضة إلى ما وصلوا إليه.. فكلّ ذلك إنّما يؤكّد كيف أنّ الوصل بين الإيمان والعمل على صعيد الاعتقاد يفضي إلى حركة نهضة واقعية حتى وإن كان الأصل باطلاً، فكيف إذا كان هو الحقّ المبين؟!

2- التفعيل الإرادي للاعتقاد:

إذا كان ترشيد الفهم العقدي يمثّل مرحلة مهمّة في التفعيل الحضاري للعقيدة الإسلامية، باعتبار أنّ صحّة التصوّر العقدي هو الشرط الأساس لكلّ فعالية لذلك التصوّر، إلاّ أنّ ذلك الترشيد في الفهم ليس بكاف وحده في إحداث الدفع الحضاري; ذلك لأنّ هذا الدفع له علاقة بالإرادة الفاعلة. فالصورة الفكرية مهما تكن صحيحة في ذاتها فإنّها إذا لم تكن بالغة مبلغ التأثير في الإرادة لتدفع إلى العمل، فإنّها تبقى محدودة الأثر في السلوك الواقعي.

وهذا المعنى هو الذي عناه ابن خلدون في تحديده للكيفية الإيمانية التي ينبغي أن تكون عليها عقيدة التوحيد حتى تفضي إلى الفعل، إذ يقول: «إنّ المعتبر في هذا التوحيد ليس هو الإيمان فقط الذي هو تصديق حكمي، وإنّما الكمال فيه حصول صفة منه تتكيّف بها النفس»[1]. فهذه الصفة التي تتكيّف بها النفس هي التأثير، الذي يكون للتوحيد في الإرادة لتدفع إلى الفعل.

ولكي يكون للعقيدة تأثير في الإرادة ينبغي أن تعالج بجهد آخر غير جهد التصحيح والترشيد. وقد كان هذا الجهد في الأجيال الإسلامية الأولى يتكفّل به ذلك الزخم الإيماني الذي دفعته دفعة قويّة الدعوة النبوية، فامتدّ أثرها على مدى أجيال، وذلك على نحو ما يبدو في قصّة ذلك الصحابي الذي سأل النبيّ ﷺ في غزوة أحد

(1) ابن خلدون، المقدمة، ص 425، (مطبعة دار الشعب، القاهرة، د.ت).

قائلاً: «أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فَأَيْنَ أَنَا؟ قال: **فِي الْجَنَّةِ**، قال: فَأَلْقَى تَمَرَاتٍ فِي يَدِهِ, ثُمَّ قَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ»[1].

فالدفع النبوي لعقيدة الجزاء، لم يمهل هذه العقيدة بين أن تكون فكرة صورية وأن تؤدّي إلى سلوك عملي حتى بمقدار ما يتمّ هذا الصحابي أكل تمرات كان يأكلهنّ.. وكذلك كان الأمر في مجمل العقيدة الإسلامية على مدى أجيال من المسلمين.

ولكن بعد مرور زمن بدأ التصوّر الإيماني العقدي يتراخى عن إحداث هذا الدفع الإرادي للفعل، ثمّ تطوّر الأمر إلى أن أصبح يكاد لا يفعل من ذلك الدفع شيئًا، وإنّما هي عقيدة صورية تمثّل تصديقًا حكميًا لا تتكيّف به النفس، كما عبّر عن ذلك ابن خلدون. وهذه هي الحال التي عليها المسلمون اليوم، وهو ما يستدعي بذل جهد إضافي لجعل هذه العقيدة مكيّفة للنفس، محرّكة للإرادة، كي تحدث النهضة في واقع الحياة. ولعلّ من أهمّ ما يتمّ به ذلك أمرين: الأوّل، الجزم الاعتقادي.. والثاني، الإحياء الروحي للاعتقاد.

أ- الجزم الاعتقادي:

لا يبلغ الإيمان بالعقيدة مبلغاً يصير به دافعًا إلى الفعل إلاّ إذا تمّ على صورة من اليقين الجازم بحقّانية هذه العقيدة في متعدّد أبعادها، بحيث لا يمكن أن تتعرّض إلى أيّ لون من ألوان الظنّ أو الريب. ولا يكون ذلك اليقين الجازم ذا قيمة في هذا الشأن إلاّ إذا كان يقينًا واعيًا حاصلاً عن اقتناع ذاتي بعد معاناة للتدبّر والتفكّر والاستدلال; ولذلك فإنّ علماء المسلمين كانوا محقّين لما اشترطوا في الإيمان بالعقيدة أن يكون إيمانًا ذاتيًا ناشئًا بالنظر، واعتبروا الإيمان الموروث بالتقليد إيمانًا غير معتدّ به،

(1) أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة أحد.

فما ذلك في شطر كبير منه إلاّ لكون هذا الإيمان لا يبلغ من النفس مبلغ الدفع إلى العمل، أو هو سرعان ما يتراخى عن ذلك الدفع إن حصل منه.

والصورة الإيمانية الحاصلة اليوم لدى المسلمين، هي صورة حاصلة عند أكثرهم بالتقليد الوراثي، وهي عند بعضهم تشوبها ظلال من الظنّ الذي يميل عند بعض منهم إلى الشكّ، وذلك بفعل مؤثّرات من الغزو الثقافي العنيف الذي تتعرّض له الأمّة. وهي لذلك صورة لا تبلغ في مجملها الدرجة المطلوبة من اليقين، ولا الدرجة المطلوبة من الوعي بذلك اليقين، وهو من أهمّ أسباب قصورها عن الدفع إلى الفعل المحدث للنهضة في الواقع، فدعت إذن الحاجة إلى معالجتها لتبلغ المطلوب في اليقينية والوعي.

ولعلّ من أهمّ السّبل إلى ذلك، استنهاض الفطرة الكونية في المسلمين، وذلك بالتوجيه إلى التدبّر في آفاق الكون للوقوف على آيات الله فيها، فذلك من شأنه أن يعمّق في النفوس الإيمان بمفردات العقيدة كلّها، إذ ليس منها إلاّ ما له شواهد يقينية في تلك الآفاق، كما أنّ من شأنه أن يجعل ذلك اليقين يقينًا واعيًا بما يكون حاصلاً عن تدبّر في الآيات، وتفكّر في المخلوقات، واستدلال بها على الحقّ العقدي كلّه.

وليس المبرّر لفعالية هذا المسلك هو فقط كونه مسلكًا قرآنيًا متمثّلاً في ذلك التوجيه القرآني الواسع إلى النظر في الآفاق في سبيل الإيمان بالعقيدة، توجيهًا لا تنال منه الأيّام بل لا تزيده إلاّ تأكيدًا، وإنّما نجد له مبرّرًا أيضاً في هذا التقدّم العلمي الكبير في اكتشاف حقائق الطبيعة وقوانينها، وما أصبح لذلك في العقول المعاصرة من قوّة في الحجّة وقدرة على الإقناع. فهذه الحقائق العلمية الكونية تغدو إذا ما يُسّرت للتّأمّل من قبل المسلمين وسيلة فاعلة في ترقية الإيمان بمجمل العقيدة الإسلامية من درجة الظنّ إلى درجة اليقين الجازم، ومن درجة التقليد إلى درجة الاستدلال الواعي، ولا غرو فقد كانت تلك الحقائق مدخلاً واسعًا لكثير من الملحدين إلى الإيمان، فكيف إذا يسّرت

لتصبح للمؤمنين مسلكًا لتعميق الإيمان وتوعيته؟

ومن السبل إلى ذلك أيضًا، استنهاض الفطرة النفعية في نفوس المسلمين، بالمعنى الإيجابي للنفعية، وذلك بتوجيه الأنظار إلى التأمّل في الآثار النافعة لمجمل العقيدة الإسلامية كما تتبيّن منطقيًا وكما تبيّنت تاريخيًا، وذلك من مثل ما تثمره هذه العقيدة من أمن نفسي واجتماعي، وما تفضي إليه من ترقية للإنسانية ترقية روحية، ومن تعمير في الأرض يعود بالنفع العميم عليها، وذلك إذا ما وقع تحمّلها على الوجه الصحيح الذي تحمّلته به الأجيال الإسلامية الأولى.

وليس المبرّر لهذا المسلك هو فقط كونه مسلكًا قرآنيًا في توجيه الأنظار إلى مفردات العقيدة في سبيل الإيمان بها الإيمان الصحيح الراسخ توجيها يستدلّ بالآثار العملية النافعة على ما في تلك المفردات من الحقّ، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾(الرعد:28)، وقوله تعالى﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾(طه:124)، وإنّما مبرّره أيضا ما أصبحت عليه العقلية المعاصرة من تقبّل للحجّة العملية النفعية، في الإيمان بالمعتقدات النظرية، وكذلك ما تبيّن للناس من فشل للأديان والمذاهب في تحقيق السعادة الواقعية للإنسان بالرغم ممّا حقّقه بعضها من الرفاه المادّي العريض.

وحينما تُستنهض في نفوس المسلمين الفطرة الكونية والفطرة النفعية، لتوجّه كلّ منهما في الاستدلال على العقيدة الإسلامية بالأقدار المناسبة لأوضاع العقول حسب مستوياتها، فإنّ هذه العقيدة ستحلّ في النفوس على وضع جديد تكون فيه على قدر من الجزم في اليقين والوعي فيه، بحيث تصبح تلك النفوس متكيّفة بها على حدّ تعبير ابن خلدون، فيمتدّ من ذلك التكيّف أثر دافع للإرادة الفاعلة، فإذا حركة تدبّ في جسم الأمّة تسعى إلى النهضة الحضارية في معناها الذي وصفناه سابقًا.

ب- الإحياء الروحي للاعتقاد:

إنّ الجزم الاعتقادي الذي تحدّثنا عنه آنفًا مسلكًا لتفعيل العقيدة الإسلامية، هو مسلك ذو طابع عقلي، إذ هو تعميق للاقتناع العقلي بتلك العقيدة بطريق التدبّر في آفاق الكون والآثار العملية للاعتقاد، إلاّ أنّ ذلك المسلك العقلي لتفعيل العقيدة، وإن كان مسلكًا ضروريًا في التفعيل، إذ الاقتناع العقلي الواعي بحقّانية العقيدة هو المدخل الأساس لكلّ تأثير في الإرادة، فإنّه قد لا يكون كافيًا لتحريك تلك الإرادة، خصوصًا حينما تطول عهود الانفصال بينها وبين العقيدة كما هو شأن المسلمين في وضعهم الراهن، حيث ظلّت عقيدتهم لا تحرّك إرادتهم لتحدث الفعل الإنجازي زمنًا طويلاً.

وفي هذه الحالة، فإنّه يكون من الضروري أن يظاهر المسلك العقلي لتفعيل العقيدة في نفوس المسلمين مسلك آخر هو الإحياء الروحي للاعتقاد في تلك النفوس، وذلك بأن يتّجه المسلم في سبيل تقوية الإيمان إلى تحمّل عقيدته تحمّلاً روحيًا بالإضافة إلى تحمّلها العقلي. ففي الإنسان من القوى التي تجعل النفس تتكيّف بحقائق العقيدة ما هو أزيد من قوّة العقل في صرامته المنطقية، وذلك من مثل القوّة الروحية التي تنبني على الأحاسيس والعواطف، وتمثّل قوّة ذات شأن في الرّبط على الحقائق العقدية بحيث تجعلها عامل دفع للإنجاز العملي.

وحينما خاطب القرآن الكريم المسلمين بحقائق العقيدة، فإنّ خطابه لهم في سبيل التصديق لها والانفعال بها لم يقتصر على المسلك العقلي، وإنّما اتّجه بالإضافة إلى ذلك إلى مجامع النفس في أبعادها العاطفية المختلفة، من مثل حبّ الله تعالى والشوق إليه، والخوف منه والرجاء فيه، وانتظار ثوابه والطمع في غفرانه، ليكون ذلك كلّه دوافع للإيمان وروابط تمكّن له في القلب فتدفع به إلى السلوك. ومظاهر هذا المسلك منتشرة

في القرآن الكريم انتشارًا واسعًا لا تقلّ عن انتشار مسلك الاستدلال العقلي، وقد كان ذلك مناطًا لجهود الإمام الغزالي رحمه الله في حركته لإحياء علوم الدين، فكان كتابه المترجم بهذا الاسم مشتملاً على فصول واسعة في هذا الشأن.

ولما كان الوضع الاعتقادي للمسلمين يميل إلى أن يكون وضعًا يقوم على التصوّر العقلي الجافّ، الذي تأثّر بحركة علم العقيدة الذي اتّجه منذ وقت مبكّر إلى الصرامة المنطقية في تقرير العقيدة، فإنّه مع ترشيد هذه الوجهة العقلية على النحو الذي وصفنا تدعو الحاجة إلى أن يدعّم بإحياء روحي، تجلّل فيه الحقائق العقدية على تنوّعها بمعاني حبّ الله تعالى والخوف منه، والطمع في النجاة يوم الحساب والخوف من الهلاك فيه، والفرح بالنجاح في القيام بوظيفة الخلافة والحزن من الإخفاق فيها، وما إلى ذلك من هذه المعاني الروحية التي من شأنها أن تكون ظهيرًا لذلك المنهج العقلي ليثمرا معًا فتأخذ تلك العقيدة في نفسه موقعًا مكينًا، فتدفع به إلى الفعل في الواقع، وتكون من هناك بداية النهضة.

يتبيّن ممّا تقدّم أنّ الأمّة الإسلامية تتوفّر على طاقة حضارية كبرى، متمثّلة فيما تتضمّنه عقيدتها من أبعاد يرتبط فيها ارتباطًا مكينًا الإيمان بالله واليوم الآخر بالتعمير في الأرض علمًا واستنفاعًا، وبالترقّي الإنساني فردًا ومجتمعًا، ممّا يمثّل عاملاً أساسًا من عوامل النهضة من تخلّفها لاستئناف شهودها الحضاري. وهو أمر تتضافر في الاستدلال عليه اللازمة المنطقية والشهادة التاريخية على حدّ سواء.

كما يتبيّن أيضًا أنّ تلك الطاقة ظلّت منذ عهد بعيد في طور كمون لا تفعل في الدفع إلى النهضة شيئًا، إلاّ أنّها مع ذلك تحمل في ذاتها من قابلية الفعل ما لو عولج ببعض الجهد، بأن ترشّد عقيدة المسلم في مصدرها وفي مفهومها، وبأن تفعّل بيقينية عقلية واعية وبإحياء روحي شامل، لانطلقت قوّة جبّارة تدفع بالمسلمين في

حركة حضارية تنهض بها من كبوتها.

فالأمّة الإسلامية تتوفّر في عقيدتها على طاقة حضارية هائلة لو استُنهضت لنهضت بها.. كما تتوفّر في أرضها، وفي جغرافيتها، وفي فطرة شعوبها على أقدار هائلة من أسباب النهوض الحضاري. فمتى تنتبه إلى تلك الطاقات والمقدّرات لتنهض بها من تخلّفها الذي طال ليله، وتستأنف بها حضارتها التي طال انتظارها؟